الخاطرة

ترياق الشرق

د. جميلة الوطني *

ترياق الشرق:

كيف أعادت حكمة بيدبا وبراءة حي بن يقظان صياغة وجداننا؟

عند تخوم المنامة، حيث يخلع البحر زرقته الرائقة ليلتحف بها الأفق في صلاةٍ وجدانيةٍ مهيبة لا تنقضي، وقفت أرصد الأمواج وهي تحيك بأصابعها المائيّة الرقيقة مناديل من زبدٍ وضياء، تنشرها فوق رمالٍ ممتدةٍ كأنها مرسال بعثه غابر الأزمان، أو معلّقة دهرية كتبت بمداد الذهب ولم يخطَّ الزمان قافيتها الأخيرة بعد.

كنت أقف في تلك اللحظة الغامرة، أستكين لجلال الصمت الذي يلفّ المدى، وأسترق السمع بقلبي قبل أذني لهمسات المحار المخبأة في تجاعيد الأعماق الغائرة كأنها

* كاتبة وشاعرة من مملكة البحرين

تمـائم عتيقـة لفظهـا المحـيط فـي هـدوء، ليعيـد بهـا ترتيـب ذاكرتـي المبعثـرة بـين ضـفتين حانيتين...ضـفة المنشـأ حيـث الجذور، وضفة الروح حيث يشرق النور.

في غمـرة هـذا السـكون البـاذخ الـذي يطهـر الـروح مـن أوحـال الحيـاة العصـرية وضـجيجها الخـاوي، تـرددت فـي ذهنـي فكـرة، كأنهـا طـائر زاجـل يخـرج مـن تحـت رمـاد الأسـاطير الغـابرة ليختـرق أسـتار الـزمن، حاملـةً إلـيّ أمـلًا فـي أن أسـهم بمـداد فكـري فـي إشـعال قناديـل المعرفـة مـن أرض "السـند والهنـد"، لتكـون جسـرًا حضـاريًا تعبـر فوقـه أحـلام المثقفـين مـن المحـيط إلـى الخلـيج، محملـةً بعبيـر التوابـل وأسـرار الفلسفة العميقة.

من "بنجاتنترا" إلى لسان العرب

بـين ترنيمـات المـد والجـزر التـي تعـزف لحـن الأزل علـى قيثـارة الشـاطئ، انبعـث فـي مخيلتـي طيفـان لا يفترقـان. طيـف الفيلسـوف الهنـدي الفـذ "ڤشـنو شـرما"، المعـروف بـ

"بيـدبا"، وطيـف الفيلسـوف الأندلسـي العبقـري ابـن طفيـل.. لقـد تـراءى لـي بيـدبا وهـو يخـطّ بريشـة بصـيرته فصـول كتابـه الخالـد "بنجـاتنترا"، تلبيـةً لرغبـة الملـك دبشـليم، ليقطّـر الحكمـة فـي قـوارير الحكايـات، بينمـا كـان ابـن طفيـل يسـكب من محبرة عبقريته ملحمة "حي بن يقظان".

تـراءى لمخيلتـي فـي تلـك اللحظـة ذلـك المهـد الخشـبي العتيـق وهـو يغالـب صـخب الـيمّ وعتـوّ الأمـواج المتلاطمـة، وكأنـه رحـم مـن خشـب السـاج يحمـل فـي جوفـه طفـلًا غضًـا، بريئًـا كفجـر لـم يشـرق بعـد، لا يملـك مـن أسـباب البقـاء إلا خفقـات قلبـه الواثقـة، حتـى اسـتكان بـه المـآل علـى شـواطئ إحدى جزر الهند القصيّة.

لقـد انطلـق "ترياق الشـرق" مـن قلـب القـارة الهنديـة، ليتلقفـه المبـدع عبـد الله بـن المقفـع، الـذي لـم يتعامـل معـه كمتـرجمٍ ينقـل اللفـظ، بـل كخيميـائيّ يسـتنطق الـروح؛ إذ سـكب فـي قوالـب الضـاد رصـانة الحكمـة الهنديـة، فجـاءت

نسخته العربية "كليلة ودمنة" جسرًا عبقريًا عبر عليه العقل العربي نحو كنوز الشرق. ببراعة الفذّ، جعل ابن المقفع من هذا الأثر لسان حالٍ للقيم الإنسانية المشتركة، مصهورًا في وجدان أهل الخليج الذين حملت سفنهم قديمًا البخور والحكمة معًا، ليبقى هذا السفر شاهدًا أزليًا على أن لغة العقل لا تحتاج إلى جوازات سفر.

لم تكن حكاية حي بن يقظان بالنسبة لي مجرد بحث فلسفي جاف عن العزلة، بل هي رمزية عميقة لصلة قدرية لا تنفصم.. صلة جعلت من المحيط جسرًا للعبور والاتصال لا حاجزًا للفصل والشتات.

ثمة رابط سحري غامض يتجلى في ذلك التماهي المذهل بين شواطئ مملكة البحرين التي أقف عليها الآن، وبين مفهوم الجزر الذي تردد كصدىً شعري وفلسفي في رواية ابن طفيل. فالبحرين، بصفتها أرخبيلًا يحتضن مياه الخليج،

تبدو لي كأنها مختبر للكون، تمامًا كما كانت تلك الجزيرة البعيدة في الهند مسرحًا لانبثاق النور الإنساني الأول.

الكلمة والترياق: صياغة كينونة الضفتين

إن الوشائج الضاربة في عمق التاريخ بين البحرين والهند لم تكن يومًا رهينةً لحسابات الأرقام الباردة، بل هي حالة من الانصهار الوجداني الباذخ.. لقد كانت الكلمات والأفكار أسرع جريًا في عروق الزمن من القوافل؛ فحين دخلت النغمة الهندية الشجيّة في المشهد الموسيقي البحريني، لم تكن غريبة، بل وجدت مستقرها بين تلافيف "فن الفجري" وعمق "البستات" البحرينية الأصيلة.

لقد تماهى صريف العود الخليجي مع أنين السيتار الهندي في صورة رمزية تعبّر عن تلاقٍ كونيّ يتجاوز الجغرافيا.. فالكلمة عند "بيدبا" كانت دواءً، لا تكتفي بالتنظير بل تنطق البهائم بلسان الفطرة لتقدم للبشرية مرايا صافية.. إنه

الحكيم الذي يقدّم الحقيقة عاريةً من التجمّل، كتحذيره من الانسياق وراء الظنون بقوله: "إن الذي يعمل بالشبهة يكون قد صدق ما ينبغي أن يشك فيه"، ليكون قوله دواءً مرًا يشفى من داء الجهل.

المنامة... مرفأ الحكمة ومنارة التعايش

المنامة، بروحها المتسعة وسماحتها المعهودة، لم تكن مجرد مرفأٍ تجاري فتح أشرعته للسفن المصنوعة من خشب الساج الهندي، بل كانت قلبًا نابضًا احتضن الأرواح الهائمة والقصص المعتقة التي حملتها الرياح الموسمية من ضفاف السند ومنطقة الكوجرات.. ليتخلق من هذا التمازج طيف ثقافي فريد، قوامه التسامح الذي لا يزال ينبض حيًا في أزقة المنامة العتيقة، شاهدًا على أنّ البحر لم يفصلنا يومًا، بل كان يجمع شتات أحلامنا ليرتبها في لوحة حضارية واحدة متعددة الألوان.

واليـوم، وإذ أقـف مـأخوذةً بجـلال الهنـد، أسـتدرّ مـن معـين ثمارهـا مـا يبشـر بميقـات فكـري بكـر.. تشـرئبّ الـروح نحـو أفـق ممتـد، مستحضـرةً تلـك اللحظـة الأزليـة حـين احتضـنت جـزر الهنـد الغـابرة "حـي بـن يقظـان"، فآوتـه مـن شـتات التيـه، وأفضـت إليـه بمكنـون أسـرار الوجـود الكبـرى، تمامًـا كمـا احتضنت لغتنا العربية ترياق "بيدبا" ومنحته خلود البيان.

الطفل القادم والمهد المتجدد

إننـي بحـدس أسـتأنس بـه، وبيقـين لا أزعـم تمامـه، أرتقـب ذلـك المـدّ القـدريّ الجديـد الـذي سـيقذف نحـو شـطآننا بمهـد خشـبي آخـر، لـيس مصـنوعًا مـن السـاج فحسـب، بـل مطـرزًا بأسـرار المحـيط وعطـور التوابـل الفكريـة... مهـد ينسـلّ فـي رفـق مـن أعطـاف الهنـد العظيمـة ليحمـل فـي أحشـائه طفـلًا يفـيض طهـرًا، ويتقـد خيـالًا، وكأنـه قـبس مـن نور الشرق القديم بعث ليجدد وجه الأرض بالعلم والفن.

هـذا الطفـل هـو رمـز لانبعـاث "بيـدبا" جديـد فـي عصـرنا الحـديث؛ فكـر يجمـع بـين بـراءة الفطـرة وبـين عمـق التجربـة التاريخيـة.. إنـه يمثـل تلـك البـراءة الأولـى التـي اسـتعادتها الحكمـة بعـد طـول سـفر؛ فالحكمـة الحقـة فـي نهاياتهـا لا تزيدنا تعقيدًا, بل تمنحنا تذكرة عودةٍ إلى دهشة الأطفال.

لـيس هـذا القـادم إلا مشـكاة لمبـادرات ثقافيـة كبـرى, تـروم صـياغة ملحمـة الوحـدة بـين ضـفتينا برؤيـة تلامـس شـغاف المسـتقبل.. رؤيـة تبـدأ مـن تراسـل الأرواح عبـر جسـور الترجمـة الرصـينة, لتنطـق عيـون الأدب الهنـدي بلسـان عربـيّ مبـين, وتسـتعيد الفلسـفة العربيـة نضـارتها بمـرآة هنديـة صـافية.. هـي رحلـة تمـر عبـر أوراد إبداعيـة مشـتركة, تمحـو المسـافات بـين عقـول المنامـة وحكمـاء دلهـي, لتنصـهر فـي نتاج فكري يبرهن للعالم أن نبض الجمال لا يوقفه قيد.

إن هـذا الطفـل القـادم لـم يـأت إلا ليـردّ للهنـد جـلال براءتهـا, ويسـدد بعضًـا مـن ديـن فيضـها المعرفـي الـذي طالمـا أنـار

ديـاجير الفكـر البشـري.. طفـل يرتشـف لبـان الحكمـة بـين رمالنـا الذهبيـة الدافئـة ومياهنـا اللازورديـة الصـافية, لينحـت للكـون أيقونـة الوحـدة الإنسـانية, ويثبـت أن "بـراءة الحكمـة" هـي الترياق الأسـمى الـذي سيصـهر مفاخرنـا فـي بوتقـة حضارية تليق بتاريخنا الضارب في عمق الأزل.

فلنحفـر معًـا فـي رمالنـا سـواقي مـن نـور, ليبقـى التواصـل بيننـا وبـين الهنـد نهـرًا مـن السـناء الأبـدي لا يغـاض, يغسـل وجنـات التـاريخ مـن غبـار القطيعـة, ويمـلأ رئـة المسـتقبل بعطر الحكمة وضياء الجمال الخالد.

❖❖❖❖❖❖❖❖❖